إلى جورج برناردشو وتوفيق الحكيم
وبيجماليون وجالاتيا في الأسطورة الإغريقية.

ليست كمثل النساء

فخري قعوار

ـ ١ ـ

جملة واحدة بقيتْ تدور في رأسي، منذ عشرين عاماً، قالتها امرأة ربطتني بها علاقة تفاوتت بين الدفء والتحدّي:

ـ أنت تبحث عن امرأة ليست موجودة في هذا العالم. وما من حلّ أمامك، سوى أن ترسل بطلبها إلى السماء، عسى أن يعود الخالق إلى صنع حوّاء جديدة على قياسك.

وكانت هذه العلاقة تمرّ في خريفها، حين عادت لتكرر كلامها، وتضيف قائلة:

ـ لماذا لا تستخدم إزميلك، وتنحت المرأة التي تريد؟

ـ أستطيع أن أصنع تمثالاً لامرأة، لكنني لا أستطيع أن أصنع امرأة!

قالت:

ـ هذا إقرار منك بأنك تبحث عن امرأة سواي!

ولم تعطني وقتاً للشرح. وحسناً فعلت، لأنني لو شرحت، لزدت الأمر تعقيداً، ولزدتها نفوراً، ولما فهمت شيئاً، وغادرتِ المكان بسرعة. لكن جملتها بقيت تدور في رأسي سنوات وسنوات: «أنت تبحث عن امرأة ليست موجودة في هذا العالم».

ـ ٢ ـ

أدخل العمالُ الصخرة من الباب الرئيسي للحديقة، وبعد جهد كبير ومشقّة، استقرت فوق المساحة الإسمنتية التي حددتُها لهم.

سمع الأستاذ لطفي الإبراهيمي ارتطامَ الصخرة بالأرض، وأصوات العمال، فظهر من النافذة المطلة على الحديقة، وسألني:

ـ ماذا ستفعل هذه المرة؟

قلت له:

ـ سأصنع تمثالاً لامرأة!

قال بصوت خفيض:

ـ ومن هي صاحبة الحظّ الباهر؟

قلت:

ـ ليس هناك صاحبة حظّ باهر أو غير باهر، لأنني سأخترع صورة المرأة التي لم ألتق بها في هذه الدنيا.

ابتسم الأستاذ لطفي، مشفقاً على حالي، وقال متسائلاً:

ـ وهل تظن أنك ستنحت امرأة أفضل من غيرها من النساء؟

كان السؤال غير وجيه، لأنني لو رأيت المرأة التي أبحث عنها، لجعلت التمثال لها. ومع ذلك قلت:

ـ قد لا تكون أفضل منهن، لكنني سأنحت المرأة الفضلى بالنسبة لي، وهي في النهاية، أفضل منهنّ.

وبدا الأستاذ لطفي مناكفاً، على غير عادته، حين قال:

ـ وهل تظن أن الحجر يمكن أن يكون أفضل من الروح؟

لم أدعْه يلحظ ضيقي حين قلت:

ـ لا مجال لعقد مقارنة. فالمسألة كما تعرف، فنيّة أو إبداعية، سنناقشها فيما بعد.

وتراجع عن النافذة مبتسماً:

ـ على بركة الله!

وتمتمت في سرّي:

ـ درب جهنّم.

ـ ٣ ـ

لم أحتج في حياتي لكل هذا الوقت لإتمام تمثال. وأطول فترة أحتاجها تمثال نحتُّه في حياتي، هو ذاك المنصوب في الميدان الكبير المؤدّي إلى مركز المدينة، إذ استغرق ثلاثة أشهر من العمل المتّصل ومن الطقطقة التي طالما أقلقت راحةَ الأستاذ لطفي الإبراهيمي وغيرهِ من أفراد أسرته والجيران.

مشكلتي مع هذا التمثال أنني كنت أرتجف عندما أنوي الضرب على الإزميل، فأتوقّف، وأتشاور مع نفسي فيما إذا كانت الضربة في محلها أم لا، وهذا يلزمه وقت، والتردّد يقتنص الوقت، والإحساس بأن الإزميل يدخل في لحم حيّ لم يفارقني أبداً. وكلما بدأت ملامح جسد المرأة تظهر، أشعر بخوف أكثر، ويزداد ارتجاف أصابعي، ويحتد قلق يدي. وحين فرغتُ من عينيها، أُصبتُ بضعف عام في مفاصلي، وخارت قوّتي، وصارت عيناها تطاردانني في كل لحظة، إلى أن قررتُ التوقفَ عن العمل تمهيداً للخروج من هلع النظرات المقتحمة.

ومرّت شهور، وأنا أطير في عالم رخو، وأركض أمام موج من خلفه موج، ثم أرتمي على الأرض منهكاً معطّل الهمّة، كمن وجد نفسه عند حافة المحيط مدفوعاً من ظهره إلى الهلاك الأبدي.

وأخيراً أدركت: يجب أن أموت أنا، أو أن أحطّم التمثال. لم يعد هناك حلّ وسط بين الموتين.

وأَطلعْتُ الأستاذ لطفي على المعادلة الأخيرة، فصاح كالمذعور:

ـ لا.. لا.. هذا جنون!

فقلت:

ـ أين هو الجنون؟

قال:

ـ أن تقتل نفسك جنون، وأن تحطّم التمثال جنون.

قلت:

ـ وماذا تقترح؟

قال:

ـ لا أقترح شيئاً!

قلت:

ـ إذن اتركني اتصرّفْ.

قال:

ـ تصرف بعيداً عن تحطيم هذه المرأة!

قلت:

ـ وهل توافق على انتحاري؟

قال مبتسماً:

ـ طبعاً لا أوافق.. فأنت إنسان حيّ.. وهذه المرأة حجر.

واستدرك قائلاً:

ـ ولا تنس أنك أنت الذي صنعها.

فقلت له:

ـ هذا هو الذي يعذّبني، أنا أصنعها، ثم نقف وجهاً لوجه، كما لو صنع كل منا الآخر.

وأضفتُ:

ـ أتذكّرُ عندما سألتني قبل شهور عما إذا كان بالإمكان عقد مقارنة بين الحجر والروح؟

قال الأستاذ لطفي:

ـ أذكر.. أذكر.. وبصراحة، فقد كنت أفكر بالمقارنة بين تمثالك وبين النساء، ولم أفكر بالمقارنة بينك وبين التمثال!

وبدا الأستاذ لطفي مستغرقاً في التفكير، لكنني قلت:

ـ المهم يا أستاذ لطفي، هذه المطاردة.. عيناها.. عيناها.. أكاد أصاب بالجنون.. لم أعد أحتمل..

قال:

ـ هذا ما كنت أفكّر فيه.. وسوف أدلّك على طريقة تساعدك في إتمام العمل..

لم أقل شيئاً، بانتظار ما سيقول، ثم أضاف:

ـ هل تعرف كيف تقوم الشرطة بإخفاء شخصية المجرم، عندما يكون أمام الكاميرات؟

قلت:

ـ أعرف..

قال:

ـ اعصبْ عينيها بخرقة سوداء، وجرّب قبل أن ترتكب جريمة.

ونجحت التجربة، وأكملت العمل، ولم أجرؤ على نزع الخرقة عن عينيها.

ـ ٤ ـ

كانت واقفة بين أشجار الحديقة، كبيرةً مثل عملاق تمتدّ عند قدميه الطحالب. امتدادات جسدها مسحوبة بانسياب قوي، عظم الفخذ طويل مكتنزٌ باللحم والجلد الأملس، وبروز الصدر يليق بامرأة ليس كمثلها بين نساء الأرض. أما أنا، فلم أكن راغباً في الابتعاد عنها، أو مبارحة المكان. والأكثر من هذا، أنني حين أتأمّل شموخ المرأة، وارتفاع رأسها، ومن ورائها خلفية السماء الزرقاء، لا أصدّق أن رجلاً مثلي يمكن أن يبدع عملاً عظيماً كهذا.

قال الأستاذ لطفي الإبراهيمي من وراء النافذة:

ـ مهما دفعوا لك، لا تفكّر بالبيع!

قلت له:

ـ هذا غير وارد، رغم حاجتي التي تعرفها.

قال:

ـ دعها هنا واقفة بسلام، فقد دخلت هذه المرأة إلى قلبي.

وشعرت بغضب من تصريحه هذا، وشعرت أنه يحصد بكل سهولة إبداعاً دمّرني واستنزف طاقتي وأخذ مني حشاشة الروح.

أضاف الأستاذ لطفي:

ـ وهل دخلت إلى قلبك أنت أيضاً؟

قلت له بحدّة:

ـ لا أسمح لأحد بمشاركتي في حبّها. لقد صنعتها لي، لا للمتفرّجين.

قال:

ـ أنا لست متفرّجاً، وأنت تعرف أنّني تابعتها يومياً، منذ أن جاء بها العمال صخرةً صماء، إلى أن صارت امرأة تفصح عن الأبّهة والوجاهة والنبل والرقّة.

قلت:

ـ لو كانت هناك وسيلة لحمايتها من عيون الآخرين، لما توانيت عن استخدامها. وعليك أن تتذكر دائماً، أنني أنا الذي أبدع هذا الصنع!

قال:

ـ سأتذكر ذلك دائماً، لكنّك لا تقدر على منع قلبي عن الخفقان.

وضحكت بمرارة، لا أشك في قدرة الأستاذ لطفي على فهمها، ونظرت إلى أعلى التمثال وأنا أقول:

ـ مشكلتي الآن هي مع هذه الخرقة السّوداء التي لا أملك الشجاعة الكافية لإزالتها.

ـ هل ترغب في المساعدة؟

صحت قائلاً:

ـ لا.. لا.. سأفعل ذلك بنفسي!

أصابتني قشعريرة في كل أنحاء جسمي، ودق قلبي بالرّهبة والجلال، ونزعت الخرقة، لأفاجأ بعينيها تتّجهان صوب النافذة.

ـ ٥ ـ

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، خرجت إلى الحديقة، فلم أجد أثراً للمرأة. وعندما نظرت إلى النافذة، وجدتها إلى جوار الأستاذ لطفي الإبراهيمي، ينظران نحوي ويبتسمان.

عمّان